

شهر رمضان المبارك وتوقعات المسلمين من المؤسسة الفقهية

الأستاذ الدكتور مصطفى عبد الباسط أحمد - الجامعة الأمريكية المفتوحة - فيرجينيا - الولايات المتحدة

mahmad@erols.com

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ، والصلاة والسلام على نبي الهدى المبعوث رحمة للعالمين محمد ، وعلى آله وصحبه ، وعلى كل من استن بسنته واهتدي بهديه إلى يوم الدين .

1. مقدمة : ما إن نقرب من شهر رمضان المبارك — أسأل الله تعالى أن يجعله شهر يمن وخير علينا جميعا — حتى تثار الأسئلة التقليدية المعروفة : متى سنصوم ؟ ومتى سنفطر ؟ وهل سيتحد المسلمون هذا العام أم سيكونون كشأن كل عام على مواقف شتى؟ لا شك أن عامة المسلمين معذورون في توجيه هذه الأسئلة ، ومحقون في توقعهم لنهوض المؤسسة الدينية والفقهية لحسم هذا التباين والإختلاف . وإذا كانت الحاجة إلى منهج لتحديد أوائل الشهور القمرية ملحةً للمسلمين جميعا في كل أنحاء الأرض لارتباط كثير من أمور العبادات بها وليس صيام شهر رمضان فحسب ، فإنها أشد إلحاحا بالنسبة للمسلمين الذين يقيمون في مجتمعات غير إسلامية ، بسبب تشتت كثير منهم بين خلفياتهم الثقافية والترجيحات الفقهية .

لقد وصل الأمر أن سكان مدينة واحدة — كمدينة فيلادلفيا ، بنسلفانيا على سبيل المثال — وجد فيها خمسة مناهج مختلفة ، ومنذ ست سنوات خلت ، تقدم منهج جديد — انطلاقا من النصوص الشرعية — يعتمد لحظة الميلاد الفعلي لهلال الشهر الجديد كأساس للتقويم وقد التزمت به فعلا — منذ ذلك التاريخ — المنظمة التي تقدمت به عندما تعذر جمع كلمة الجميع على أمر واحد . لقد لبى هذا المنهج الأخير الحاجة العملية للعلم مسبقا بمواعيد النسك من صوم وفطر وحج بما تقتضيه ظروف كثير من العاملين ، كما أن بعض الجهات الرسمية والمناطق التعليمية على استعداد لتضمين الأعياد الإسلامية في تقويمها الدراسي إذا ما ووفوا بتلك المعلومات مسبقا .

وأما أصحاب تلك المناهج الخمسة فمنهم من ذهب إلى اتباع ما تقرره المملكة السعودية من صيام أو فطر ، ومعلوم أن السعودية تعتمد رؤية الهلال كأساس لتحديد أوائل الشهور ، إلا أن هؤلاء غفلوا عن حقيقة أن رؤية الهلال قد لا تثبت في السعودية وتثبت عندهم في أمريكا لكونهم إلى الغرب مما يجعل عمر الهلال الجديد أكبر زمنا مما هو في المشرق بشمالي ساعات على الأقل ، وقال غيرهم باتباع رؤية أية دولة في الشرق ، وهؤلاء عليهم من المأخذ ما على من قالوا باتباع رؤية السعودية ، وقال آخرون باعتبار الرؤية المحلية الخاصة بمدنيتهم ، وقد افترقوا إلى فريقين فمنهم من أحاز استعمال التلسكوب ، ومنهم من أوجب الرؤية بالعين المجردة ، ومنهج خامس يقوم على اتباع ما تنصح به الهيئة الإسلامية الكبرى المعروفة باسم الإتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية ، وهذه الهيئة — على فضلها ودورها البناء — لم تستقر بدورها على منهاج ، فمن اعتماد على الرؤية المحلية في المدن الأمريكية حتى هاواي غربا ، إلى اتباع الحساب الفلكي بفرضية ميلاد الشهر الجديد قبل الثانية عشرة بتوقيت جرينتش وذلك منذ عامين أي ابتداء من شهر رمضان لسنة 1427 هـ وقامت بنشر المعلومات الفلكية حسب هذا المنهج لسبع سنوات قادمة ، إلا أنها عمليا لم تلتزم به إلا عاما واحدا ثم عدلت عنه قبيل رمضان من العام الذي تلاه بعدة أيام إلى منهج حسابي جديد يشترط غروب الهلال في مكة بعد غروب الشمس فيها ولو بدقيقة واحدة لاعتماد أول الشهر في اليوم التالي ، وهذا المنهج سيواجهه من التناقضات العملية ما واجه المنهج الأول والذي أدى بهم إلى تغييره ، إذ أن فحوى المنهج الثاني هي ذاتها فحوى المنهج الأول مع تقديم شرطهم لساعة الميلاد الفعلي نحو خمس ساعات ، أي نحو السابعة صباحا بتوقيت جرينتش بدلا من الثانية عشرة ليضمنوا فرصة أفضل لمشاهدة الهلال الجديد في المدن الأمريكية ، وأما قولهم بغروب القمر في مكة ولو بدقيقة بعد غروب الشمس فما هو إلا تحكم لا يسند دليل من شرع أو واقع ، اللهم إلا لإضفاء شرعية وهمية بملازمة مشاعر المسلمين لما هو معلوم لمكانة مكة من إجلال في قلوبنا جميعا ، ورجاء أن يكون هذا العرض أكثر قبولا ، وأدني إلحاحا من الجمهور لشرح سبب التغيير من قولهم بأننا قد غيرنا شرط الثانية عشرة بتوقيت جرينتش بالسابعة صباحا بتوقيت جرينتش .

إن قضية تحديد أوائل الشهور تتداخل جوانبها بين الفقه والفلك ، وفي الفقه نفسه بين المقاصد والوسائل ، بل لا يمكننا إغفال العامل السياسي وتأثيره على المؤسسة الفقهية ، وتجاوب المؤسسة الفقهية مع تلك الاعتبارات ولها في تخرجات السياسة الشرعية تأويلات لتبرير ما تذهب إليه . وسأحاول في هذه الدراسة تحرير هذه الجوانب بإيجاز أرجو ألا يكون مخلا .

2. المجموعة الشمسية : لقد خلق الله تعالى كل شيء فقدره تقديرا ، وجعل الشمس والقمر حسبانا ، وأمرنا سبحانه بعبادات وشعائر ، ووقت مواقيت لأدائها ، منها ما يدرك وقته بناء على علاقة كوكبنا (الأرض) بالشمس ، ومنها ما يتحدد وقته بناء على علاقته بكل من الشمس والقمر في آن كالصلوات الخمس ووقت صلاة العيدين في الحالة الأولى ، والصيام والزكاة والحج وصالاتي الكسوف والخسوف في الثانية .

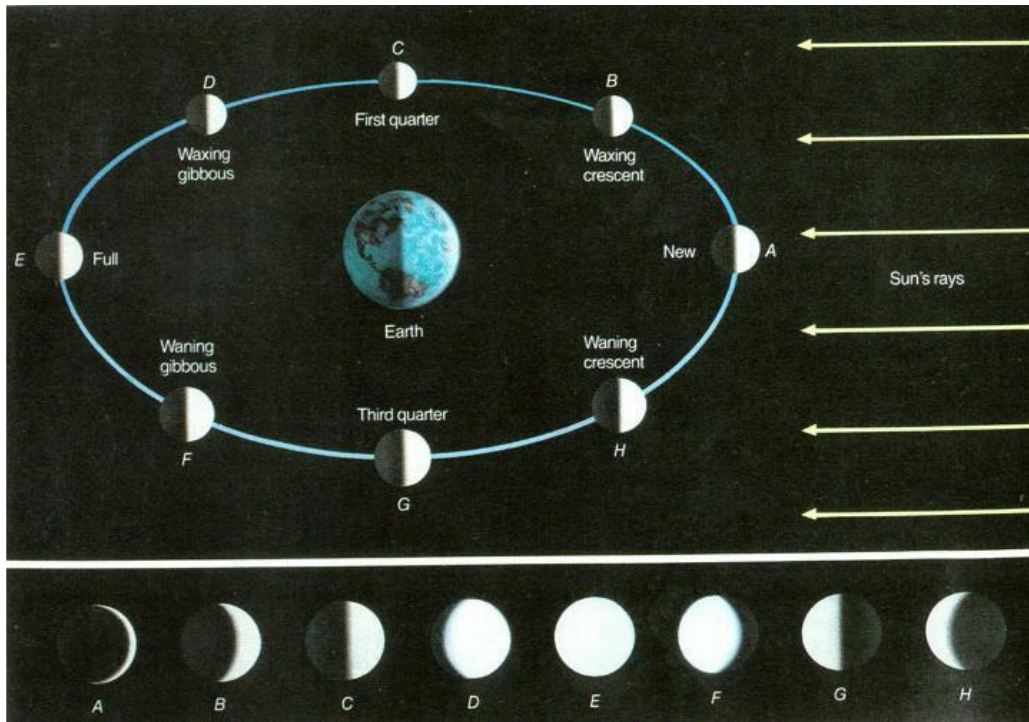
وجميع هذه العلاقات التي تربط بين الأجرام هي علاقات رياضية محددة أي بتقدير وحساب ، تطورت علوم الناس ومعارفهم لفهمها وإدراكها كشأن العلوم والمعارف الأخرى ، وأصبحت النماذج والمعادلات الرياضية التي تضبط علاقة هذه الأجرام ببعضها معلومة لنا بصورة دقيقة جدا ، وتقدم لنا تطبيقاتها نتائج قطعية مستيقنة ، ليس للحظتنا المعاصرة فحسب ، وإنما للمستقبل القريب أو البعيد على حد

سواء ، بل ويمكن العودة بما إلى الماضي لأي عدد نشاء من السنين أو القرون . ومما يؤسف له أن يتخلف المسلمون عن حسم أمر متعلق بعلاقة الأرض بالقمر في عصر اسنطاع الإنسان فيه إدراك هذه العلاقة بدقة بالغة مكنته من الهبوط على سطحه منذ أربعة عقود خلت تقريبا .

خلال الشهر القمري مع دوران القمر حول الأرض يجتمع كل من الأرض والقمر والشمس مرتين على خط واحد تقريبا : أولاها عندما يكون القمر محاقا ؛ حيث يكون القمر بين الشمس والأرض ، وحيث أن القمر ليس نجما بل جرمًا مظلمًا فهو لا يرسل أية أشعة ؛ لذلك لا يمكن رؤيته من على سطح الأرض إلا عندما يكون اتجاه الضوء الذي يعكسه — بسبب الأشعة الواقعة عليه من الشمس — في اتجاه كوكبنا والذي يصل تقريباً إلى الصفر في وضع الحاق . والمرة الثانية بعدها بحوالي 14.76 يوماً عندما يكون القمر بدرًا ، حيث تكون الأرض بين الشمس والقمر

وبعد لحظة الحاق مباشرة — ونظرا لحركة كل من القمر والأرض والشمس كذلك — فإن مجموعة النظام تكون قد فارقت مواقعها فيظهر للمراقب الأرضي جزء من جسم القمر الساقط عليه ضوء الشمس ، فيبدو لمن يقيم على الأرض على شكل قوس صغير جدا لا تدركه عين الرائي في بداية أمره ، ولكنه سرعان ما ينمو حتى يصبح بيّنا سافرا . ولكي يتمكن الراصد من سطح الأرض من مشاهدة الهلال الجديد بالعين المجردة فيلزم كجد أدن مرور 13-15 ساعة على الميلاد الفعلي إضافة إلى اعتبارات أخرى منها المسافة بين القمر وبين الأرض وموقع الراصد على سطح الأرض وفصول العام .

وبعد نحو أسبوع يكون القمر في الربع الأول متألقا على شكل نصف دائرة ، وبعد أسبوع آخر يظهر وجه القمر المواجه للشمس كاملا ، فيكون القمر في تمامه أو ما نسميه بدرا ، وبعد أسبوع آخر يظهر على شكل نصف دائرة مرة أخرى . ويكون القمر كاملا عندما يكون بعده عن الشمس أكثر من بعد الأرض في مسار واحد ، أي تكون الأرض بينه وبين الشمس ، ويكون الهلال الجديد عندما يكون القمر أقرب إلى الشمس أي أنه يقع بين الشمس والأرض كما سبق أن ذكرنا . وجميع مراحل كل دورة تتكرر شهريا (شكل 1).



شكل 1. منازل القمر: في القسم الأعلى تصوير مدار القمر من الفضاء المطلق viewed obliquely ، وأما القسم الأسفل فيظهر كيف يبدو القمر للمراقب من الأرض. عند لحظة بداية الشهر ، يكون الوجه المقابل للأرض في ظل الوجه الآخر بالكلية ، فيبدو مظلمًا ولا نرى منه شيئا ، ثم بعد ذلك مباشرة يسقط شعاع الشمس على جزء من الوجه المقابل للأرض فيبدو الضوء المنعكس على شكل قوس صغير — الشكل A.

وعند مرور القمر أمام الشمس فإنه يكاد يحجبها بالكلية . وتسمى هذه الظاهرة بكسوف الشمس ، وقد يُظنُّ أن الكسوف يحدث مرة كل شهر ، وكذا خسوف القمر حينما تقع الأرض بينه وبين الشمس عند النصف الثاني من الشهر . والحقيقة أن الكسوف لا يحدث إلا نحو مرتين فقط في العام وكذا الخسوف . والسبب في ذلك هو أن مدار القمر ومدار الأرض يقعان على مستويين مختلفين بمسافة تتفاوت من شهر إلى شهر بين الصفر وخمس درجات . ورغم صغر هذه المسافة إلا أنها كفيّلة بجعل القمر يمر أسفل أو أعلى من مستوى مدار الأرض في أغلب الأحوال مما يجنب وقوع ظاهري الكسوف أو الخسوف .

3. النصوص الشرعية : والمتأمل في النصوص الشرعية يدرك الحث والتوجيه للوقوف على سنة الله تعالى في تسيير هذه الأجرام ، وإدراك القانون الذي يضبط حركتها ، عن طريق العلم بالحساب . قال تعالى : "الشمس والقمر بحسبان" (الرحمن 5:55) قال الطبري : "قال المفسرون : أي بحسبان ومنازل لها يجريان ولا يعدواها . وقال آخرون : يجريان بقدر . وقال ابن عباس : يجريان بعدد وحساب ، وعن أبي مالك : بحساب ومنازل . وعن قتادة : يجريان في حساب . وفي تفسير نفس الآية الكريمة قال القرطبي : "أي يجريان بحساب معلوم . وعن ابن عباس وقاتدة : أي يجريان بحساب في منازل لا يعدواها ولا يجيدان عنها . وقال ابن كثير : "أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب".

وقال تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (يونس) قال الطبري : "فسواه منازل لا يجاوزها ، ولا يقصر دونها على حال واحدة أبدا . وقدر ذلك منازل لتعلموا أنتم أيها الناس عدد السنين ، دخول ما يدخل منها ، وانقضاء ما يستقبل منها وحسابها ، يقول : "وحساب أوقات السنين وعدد أيامها وحساب ساعات أيامها". وتحمل الآية الكريمة كثيرا من التعبيرات المنبهة والحافزة لإدراك سنة تسييرها مثل "لِتَعْلَمُوا" و "مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ" إنه لفت لأنظارنا إلى القانون الدقيق الذي لا يتحول ولا يتبدل ، و"يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" توجيه إلى التأمل في هذه العلاقات الدالة على عظيم قدرته وإتقانه لصنعه ، ومحاولة فهمها وإدراكها ، وأداء شعائرتنا بناء على العلم بنتائجها ، كما أن المعتبرين بدلالة هذه الآيات هم أهل العلم ، الحريصون على طلبه .

4. رؤية الهلال رخصة لمن يجهد الحساب والمعلومات الرياضية : أما إذا تعذر العلم بهذه العلاقات الرياضية — أي ضبط كقيمتها لا مجرد العلم بوجودها — على الناس في مكان ما أو في زمان ما ، كأن يكونوا أميين لا يحسنون الإحاطة بعلم الفلك وقواعده ، ناهيك عن كونهم لا يحسنون قراءة أو كتابة ، ولا سبيل لهم للوصول إلى أهل التخصص لاستهدائهم — فإنهم يعتمدون على الرؤية والمشاهدة — كما كان حال العرب على زمان النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال العرب وقتذاك بقوله : "إنا أمة أمية ، لانكسب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا وهكذا وعقد الإهام في الثالثة ، والشهر هكذا وهكذا يعني تمام الثلاثين . أي يكون تسعا وعشرين ويكون ثلاثين يوم" (البخاري ومسلم) . ثم وجه إلى وسيلة ميسورة وهي الاعتماد على رؤية الهلال "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأتموا العدة ثلاثين يوما" (البخاري) . والحساب المنفي العلم به هنا هو الحساب الفلكي لمعرفة ابتداء الشهور . وهو بيان وتفسير للمقصود بالحساب في قوله تعالى (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) هو الحساب الفلكي وليس العد بعد مشاهدة الهلال لأن عدد السنين يمكن إحصاءه سواء عرفنا الحساب الذي يعرفنا ببداية الشهر أم لم نعرفه ، مع وجود هامش من الخطأ عند من يجهلونه . فيكون المعنى إذن ؛ لتعلموا عدد السنين وحساب وقت دخول الأهلة وابتداء الشهور . أو لتعلموا حساب أوقات السنين وعدد أيامها وحساب ساعات أيامها كما قال الطبري . ويبيّن أن دلالة لفظ "الحساب" في الآية دلالة عامة ؛ أي أنها تستغرق حساب السنين الشمسية وشهورها ، والسنين القمرية وشهورها كذلك ، وإن كان العرب لأميّتهم لا يحسنون أيّا منهما كما أخبرنا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

ودلالة النصوص صريحة في تنزيه النبي الكريم — صلى الله عليه وسلم — عن أن ينسب لنفسه أو لقومه علم ما لا يعلمون ، فهو الصادق الأمين الذي يضع الحقيقة سافرة بينة دون مواربة أو تحفظ ، والواثق المطمئن الذي لا يقلق ولا يضطرب إذا نسب لنفسه أو لقومه جهل أمر من الأمور وأقر به ، كما أنه الذكي الأريب الذي يقدم حلا ميسورا لكل معضلة في حدود قدرات الناس وإمكاناتهم ، و يسوق الحل سلسا سهلا وكأنه لا مشكلة تواجهه أصلا ، فيوجه قومه إلى النظر والمشاهدة ما داموا لا يحسنون الحساب لمنازل الأجرام ، ويجهلون متى يولد الشهر الجديد حساييا ، مع الإتمام في حال احتجاب الهلال عنهم . فهو حل ميسور يحسنه العامة ناهيك عنهم فوق العامة ، ولا يتعطل أداء العبادات حتى يوجد بينهم الفلكيون والرياضيون .

ومع هذا التيسير فقد وجههم إلى استصحاب ما عسى أن يكون متاحا لهم من علم عن سنة الله تعالى في معرفة الأوقات وطول الشهور بالتقدير في حال الغمام ، فقد جاء في توجيهه — صلى الله عليه وسلم — "إذا رأيتموه فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا ، فإن غم عليكم فأقدروا له" ، وأعلمهم أن الشهر قد يكون ثلاثين يوما وقد يكون تسعا وعشرين (البخاري) .

ومن تلك النصوص ندرك أنه حتى بين قوم أميين يجهلون الحسابات الفلكية المتقدمة فلا يزال هناك استصحاب لهديات فلكية وإن كانت سطحية ، كالأ يزيدوا شهرهم على ثلاثين يوما ، فلو تعذرت مشاهدة هلال الشهر الجديد لغيم بالسماء لعدة أيام متتابعات بعد تمام شهرهم تسعا وعشرين فإنهم لا يستمرون في إضافة أيام إلى الشهر حتى يروا الهلال ، إذ قد يستمر ذلك أياما وأسابيع ، وقد يبلغ شهورا حتى مع صفو السماء في المواقع الجغرافية التي تقترب من القطبين ، وإنما في هذه الحالة — رغم جهلهم بالحساب الفلكي — فقد أمروا بتجاهل الرؤية وتجاهل التربص لمشاهدة هلال الشهر الجديد ، والعدول إلى أعمال لون ميسور للجميع من الحساب ، ويكون ذلك بإتمام عدة الشهر ثلاثين يوما ، ولا يجوز لهم أن يستمروا في إضافة أيام حتى يروا الهلال .

ويلاحظ أنه لو كان طول الشهر تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم تماماً لكانت معرفة بدايات الشهور حسابياً أكثر يسراً ، ولأصبح تحديد ذلك يسيراً على الجميع بما في ذلك العرب الأميين . وما عليهم إلا أن يجعلوا شهراً ثلاثين يوماً والذي يليه تسعة وعشرين فينضب بذلك حساب الشهور ، ويمحو الشهر اللاحق هامش الخطأ الذي تسبب فيه الشهر الذي سبقه ، ولكن قوله صلى الله عليه وسلم : "لا نكتب ولا نحسب" فيه دلالة على الأمر يستلزم حساباً آخر أكثر دقة من مجرد التبادل المستمر بين الفترتين ، وأنه يتطلب قدرات علمية أو رياضية متقدمة لاتتوفر عند العرب آنذاك . وهذا الوصف دقيق جداً ، إذ من المعلوم لنا الآن أن طول الشهر مقداره 29.5881 يوماً . فحيث أن العرب آنذاك غير مؤهلين لإمكانية الحساب فقد ورد التوجيه : "إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتم الهلال فأفطروا ، فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يوماً" (صحيح مسلم). وجميع النصوص الموجهة لاعتبار الرؤية إنما هي مقيدة بحديث أمية الأمة ، أي أنها تحمل عليه عملاً بقاعدة الجمع بين النصوص وعدم تعطيل بعضها لبعض .

وقد روى كل من البخاري ومسلم في صحيحهما ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : "شهرنا عيد لا ينقصان ؛ رمضان وذو الحجة" . وقال البخاري وإسحق بن راهويه : "لا يجتمعان كلاهما ناقص" (فتح الباري) . وأخرج الحديث أيضاً الترمذي وقال معناه : "لا ينقصان معا في سنة واحدة ، فإذا نقص أحدهما تم الآخر" . وهذا لون من التوجيه الحسابي ، بل فيه تقديم للحساب على الرؤية والمشاهدة ، فلو كان شهر رمضان تسعة وعشرين يوماً فلا نعتبر ذا الحجة تسعة وعشرين بل نعتبره ثلاثين يوماً دون اعتماد على الرؤية والمشاهدة حسب فهم البخاري وفهم ابن راهويه للنصوص .

فالحساب إذن هو الأصل لمعرفة أوقات الصلوات وأيضاً لمعرفة دخول الشهر الجديد ، فإذا تعذر العلم بذلك فيكون الأمر متجهاً للنرخص بالنظر للشمس والظلال لتقدير أوقات الصلوات ، وتحري رؤية الهلال بالعين المجردة أو بالوسائل الأخرى المتاحة كالتلسكوبات والمراسد وهذه تختلف باختلاف الزمان والمكان . فثبات هذا التوجيه كشأن الرخصة في التيمم في حال انعدام الماء ، ولا يجمل ولا يجل استمرار التيمم عند وجود الماء . ولو كان الأمر الشرعي هو اعتماد الرؤية في مطلق الأحوال لما كان لتصريح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أميون معنى ، ولما لزم اعتذاره عن عدم الأخذ بالحساب بسبب جهلهم به . فتصريحه عليه السلام بهذا دليل على كون الحساب الفلكي المجرد هو الأصل ، وأن توجيهه لرؤية الهلال رخصة موقوتة تزول بزوال الضرورة الملجئة للأخذ بها ، والحكم — كما هو مقرر في الأصول — يدور مع علته ثبوتاً وعدماً . كما أن كيفية تحديد بداية الشهور بالحساب أو بالرؤية أو بغيرهما ليست لذاتها مقصداً وإنما هي من الوسائل التي تحقق مقصود الشارع لمعرفة ابتداء الشهور ، وقواعد الشريعة مرنة في استعمال الوسائل الجائزة التي تحقق المقصود ، فمن الخطأ أن يقول قائل بعدم جواز القدوم للحج إلا ماشياً أو على الدواب الضامرة استنباطاً من قوله تعالى "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" .

5. تغير الفتوى بتغير الأحوال : إن تجاهل الهلال الجديد — الذي نستيقن من وجوده حسابياً — حتى ينمو بدرجة كافية تمكن من مشاهدته في الأفق بعد غروب الشمس — هو الرخصة التي وجه إليها النبي صلى الله عليه وسلم القوم الذين يجهلون الحساب ولا يملكون أدواته ، وإنه لمن الخطأ الفاحش أن نجعل الرخصة الموقوتة قاعدة عامة وأصلاً مطلقاً . ومما يبرهن على خطأ هذا المنحى أن لازم هذا المنهج هو ضرورة إبقاء الأمة على أميتها ، وتجريم جهود العلماء التي مكنتنا اليوم من الحساب الدقيق لمنازل القمر ، وكذا مواقيت الصلاة ، وحالات الكسوف والخسوف ، بل وجميع المعارف والعلوم المتنوعة ، وكل هذا معارض بصريح نصوص الكتاب والسنة .

وإذا كانت مراجعنا التراثية تبيننا بأن فريقاً من الفقهاء قد تحفظوا في قبول الحساب فمرد ذلك حيثيات خاصة لازمت واقعهم ، منها عدم الثقة في المعلومات الفلكية وقتذاك مع إدراكه لأصل القضية ، أو أن بعضهم تابع العمل بالوسيلة الميسورة وهي الرؤية فحسبها أصلاً ، أو لإلتباس الأمر على بعضهم بين علم الفلك وترهات التنجيم . ويجب علينا أن ندرك أن مثل هذه القضايا التي تبني على حقائق علمية هي قطعاً من قبيل ما يمكن أن يتغير فيه الخطاب وتتغير فيه الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال . يقول فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله :

"واختلاف الخطاب باختلاف الأحوال أمر وارد ، وهو أساس لتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال . قال الإمام النووي في المجموع : (ومن قال بحساب المنازل، فقله مردود بقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : "إِنَّا أُمَّةٌ أُمَّةٌ" ، لا نكتب ولا نحسب" ... الحديث . قالوا : ولأن الناس لو كلفوا بذلك ضاق عليهم ؛ لأنه لا يعرف الحساب إلا أفراد من الناس في البلدان الكبار) . (المجموع 270/6 ط . المنيرة) . والحديث الذي احتج به الإمام النووي - رحمه الله - لا حجة فيه ؛ لأنه يتحدث عن حال الأمة ووصفها عند بعثته لها عليه الصلاة والسلام ، ولكن أميتها ليست أمراً لازماً ولا مطلوباً ، وقد اجتهد عليه الصلاة والسلام أن يخرجها من أميتها بتعليم الكتابة ، وبدأ بذلك منذ غزوة بدر ، فلا مانع أن يأتي طور على الأمة تكون فيه كاتبة حاسبة . والحساب الفلكي العلمي الذي عرفه المسلمون في عصور ازدهار حضارتهم ، وبلغ في عصرنا درجة من الرقي تمكن بها البشر من الصعود إلى القمر ، هو شيء غير التنجيم أو علم النجوم المذموم في الشرع . وأما الاعتبار الآخر الذي ذكره النووي ، وهو أن الحساب لا يعرفه إلا أفراد من الناس في البلدان الكبار ، فقد يكون صحيحاً بالنسبة إلى زمنه — رحمه الله — ولكنه ليس صحيحاً بالنسبة إلى زمننا ، الذي أصبح الفلك يدرس فيه في جامعات شتى ، وغدت تخدمه أجهزة ومراسد على مستوى رفيع وهائل من الدقة . وقد

أصبح من المقرر المعروف عالمياً اليوم : أن احتمال الخسوط في التقديرات العلمية الفلكية اليوم هو نسبة 1-100,000.00 في الثانية !!. كما أن البلدان الكبار والصغار الآن أصبحت متقاربة ، وكأنا هي بلد واحد ، بل غدا العالم كما قيل " قرية كبرى " ! ونقل الخبر من قطر إلى آخر ، ومن مشرق إلى مغرب ، وبالعكس لا يستغرق ثواني معدودة . وقد ذهب أبو العباس بن سريج من أئمة الشافعية، إلى أن الرجل الذي يعرف الحساب، ومنازل القمر ، إذا عرف بالحساب أن غدا من رمضان فإن الصوم يلزمه ؛ لأنه عرف الشهر بدليل، فأشبهه ما إذا عرف بالبينة . واختاره القاضي أبو الطيب ؛ لأنه سبب حصل له به غلبة ظن، فأشبهه ما لو أخبره ثقة عن مشاهدة . وقال غيره : يجرئه الصوم ولا يلزمه . وبعضهم أجاز تقليده لمن يثق به. (انظر : المجموع 279/6-280). " [أسألوا أهل الذكر: الحساب الفلكي وإثبات أوائل الشهور ، إسلام أون لاين .]

ولقد عجبت من الفهم المغلوط للنصوص المتعلقة بهذه القضية لأحد الفضلاء من ذوي الباع الواسع في علم الرجال من فن الحديث ممن رحلوا عن عالمنا حديثاً — رحمه الله وجمعنا وإياه في مستقر رحمته — حينما سئل عن سبب ردة للحساب الفلكي في اعتبار تحديد أوائل الشهور ، مع قبوله إياه في تحديد مواقيت الصلاة ، إذ لا فرق من ناحية النصوص الواردة في أي منهما ، فهذه ورد فيها النظر إلى القمر وفي الأخرى النظر إلى الشمس ، أحاب بقوله : "من الآن فصاعداً : لن نأخذ بالحساب في تحديد مواعيد الصلاة كذلك".

إن المسلمين — في شرق الأرض وغربها — يختلفون وتضطرب أحوالهم ويفتنون في كل عام مرتين أو ثلاث ، ويأبى — فريق من أهل العلم — بحملهم لهذا اللون من الفقه إلا أن يضيفوا إلى هذا الخلاف مزيداً من الاختلاف مقداره خمس مرات في كل يوم وليلة ، ولنقذف بالساعات والتقويم وحاسبات الكمبيوتر ، ولنضلل مخترعيها الأفاكين ، ولننظر إلى الشمس والظلال .

وشبيه بهذا ما أبداه فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي من إنكار لما ذكره الشيخ الفاضل صالح اللحيدان ، حينما زعم أن الحديث "نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" يجرم الإعتماد على الحساب ، فقال فيمكن من مقتضياته تحريم الكتابة أيضاً ، وهذا ما يعارضه الثابت المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم. كما أنني أضيف أنه يعارض قول الله تعالى "لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ" ، فكيف يستقيم التوجيه من الله تعالى لتعلم الحساب مع تحريم الإعتماد عليه حسب زعم من يذهب ذلك المذهب في فهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ولقد التبس الأمر على السرخسي رحمه الله حينما قال : "ومنهم من قال يرجع إلى قول أهل الحساب عند الاشتباه ، وهذا بعيد فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من أتى كاهنا ، أو عرافاً وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد" (المبسوط ، ج 3) . ولم يميز — رحمه الله الفرق بين أهل الحساب وبين أهل التنجيم .

بينما وصف ابن خلدون علم الفلك وصفاً صحيحاً وأنه دراسة لحركة الأجرام بطرق هندسية وبراهين حسابية" (المقدمة).

6. تطور الرأي الفقهي : بعد تحريرنا لكون الحساب أصلاً والرؤية رخصة عارضة ، نلاحظ أن الموقف الفقهي مر بأطوار ، ففي عصر التابعين بدأ اعتبار الإستهناس بالعلوم الفلكية اعتماداً على قوله صلى الله عليه وسلم فأقروا له ، وقد أثر ذلك عن مطرف بن عبد الله من التابعين وأبي العباس بن سريج من الشافعية وابن قتيبة من الحديثين (الموسوعة الفقهية) . وكان لزاماً — في أول الأمر — أن يكون لكل أهل منطقة رؤيتهم لتعذر وسائل الإتصالات ونقل المعلومات في وقت مناسب ، وقد عنون مسلم في صحيحه "بيان أن لكل بلد رؤيتهم" . ممثلاً بأهل الشام وأهل المدينة ، وعرف هذا المنهج باختلاف المطالع ، ثم مع تطور العلوم بدأ التوجه لاعتبار أن ثبوت الرؤية في بلد يلزم أهل البلدان التي تشترك معها في ليل واحد متى تقاربت المسافات ، ومن قال بذلك ابن حجر الهيثمي والسبكي (الفتاوى الفقهية الكبرى) ، وعرف هذا باتحاد المطالع ، ثم أحياناً مع تقدم العلوم ظهر التوجه نحو اعتبار الحساب الفلكي في جانب النفي على الأقل مرحلياً ، ومن قالوا بذلك الدكتور القرضاوي ، بينما دفع إلى مزيد من اعتبار الحساب حتى لو لم يشاهد الهلال متى بقي بعد الغروب ولو للحظة الشيخ أحمد شاكر (أوائل الشهور العربية) والشيخ مصطفى الزرقا (الدكتور مسلم شلتوت ، الحساب الفلكي لتحديد أوائل الشهور العربية) . ولنسأل مرة أخرى هل تمياً النظر الفقهي اليوم — مع قطعية الحسابات الفلكية للبداء الفعلية للشهور — للإنتقال إلى الأمام خطوة أخرى للأخذ بالحساب الفلكي والإستغناء عن محاولة رؤية الهلال ، وعن السؤال عن وقت غروبه بالكلية ، كما استقر موقفه من حساب أوقات الصلوات دون حاجة إلى مشاهدة الشمس وتبعب الظلال ؟

ومما تجدر الإشارة إليه أن منهج القائلين بالإعتماد على الحساب الفلكي لتحديد إمكانية مشاهدة الهلال في مكان ما ، إنما يعتمدون أساساً على الحساب الفلكي الذي يحدد لحظة الوجود الفعلي للشهر الجديد والذي يعلمون أن حساباته دقيقة للغاية يمكن ضبطها حتى بالثانية ، ويمكن التأكد من نتائجه بظواهر الكسوف والخسوف ، ثم يعدلون عن هذا اليقين إلى حساب إمكانية المشاهدة والذي يعلمون أنه يقوم على الظن ويحتمل هامشاً من الخطأ وتسمى تلك المساحة الظنية بمنطقة عدم التأكد ، ونسأل منذ متى قبل الفقه الإسلامي زوال اليقين بالظن ؟ إن القواعد الأصولية المستيقنة تؤكد أن اليقين لا يزول بالظن بحال . قياس هذا تماماً هو أننا لو تأكدنا أن وقت الصلاة حسابياً قد دخل فقد وجبت علينا الصلاة حتى لو كانت السماء غير صافية ولا يمكننا رؤية الشمس أو آثارها .

7. متى يبدأ اليوم ومن أين يبدأ ؟ والخط العالمي للتاريخ : الأرض كروية الشكل ويتعاقب عليها الليل والنهار نتيجة لدوران الأرض حول محورها مرة في فترة تقرب من 24 ساعة . وفي الوقت الذي يكون فيه منتصف النهار في مكان ما يكون مقابله على سطح الأرض منتصف الليل . وفي مؤتمر عقد عام 1884 بالولايات المتحدة اعتبر خط وهمي بالخط الهادي خطاً لبداية اليوم العالمي - International Date Line

IDL . واعتبر امتداد ذلك الخط على النصف الآخر من الأرض بداية للتوقيت . ووجد أن هذا الخط يمر بمدينة جرينتش البريطانية فعرف بها خط التوقيت وسمي بالتوقيت الوسطي لجرينتش Greenwich Mean Time - GMT . وقسمت ساعات اليوم إلى 12 ساعة شرقي هذا الخط و 12 ساعة غربيه .

وتباين بداية اليوم ونهايته بين التقويمين العالمي والعربي : فبداية اليوم ونهايته في التقويم العالمي — المرتبط بالشمس — تختلف عن البداية العرفية عند العرب ونهايتها والمرتبطة بالقمر . ففي التقويم العالمي يبدأ اليوم بالثانية عشرة من منتصف الليل ، وينتهي بالثانية عشرة من منتصف الليلة التالية ، بينما في التقويم العربي يبدأ اليوم بغروب الشمس وينتهي عند غروب شمس اليوم التالي ، وينشأ عن هذا الإفتراق اختلاف اسم اليوم في بعض أجزائه ، فالوقت من غروب الشمس وحتى الثانية عشرة ليلا يعتبر أول اليوم الجديد حسب العرف العربي ، بينما يعتبر آخر اليوم الحالي في العرف العالمي الحديث ، ولكن هذا كله أمور اتفاقية تطورت لتحقيق المصالح ، وليست مقررات شرعية لا يجوز تجاوزها ، وإن كانت هذه الإصطلاحات أو غيرها لا تغير من حقيقة الواقع شيئا من تتابع ليل والنهار . بل لو اعتبرنا تصريح النبي صلى الله عليه وسلم بأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر لعلمنا دلالة ذلك على إبتداء اليوم من الفجر وليس حسب عرف العرب من المغرب . ودلالة ذلك أن صلاة العصر هي الوسطى لكونها سبقت بصلاحي الفجر والظهر وتعقبها صلاتا المغرب والعشاء .

8. اختلاف مسمى الأيام رغم موافقة الواقع : ينتج بسبب وجود الخط العالمي للتاريخ اختلاف مسمى اليوم والتاريخ في الأقاليم المجاورة له ، ولهذا الأمر أثره في وقت أداء العبادات المختلفة وليس مقصورا على الصيام والأعياد فحسب بل يمتد أثره إلى الصلاة كذلك . وهذه قضية حتمية واقعية يجب قبولها برضى ، بل قبلتها الأمة برضى فعلا ، وتكيفت مع الواقع الذي لا فكاك عنه والذي اقتضته سنة الله تعالى الكونية . وللتوضيح نأخذ جزيرتي دايوميد Diomedede القريبتين من بعضهما البعض ، فهما على مسافة بضعة أميال إلا أنه يفصل بينهما خط التاريخ العالمي ، فلو تمّ مسلمون يقيمون في جزيرة دايوميد الصغرى التابعة لآلاسكا Alaska's Little Diomedede فإنهم يؤدون صلاة الجمعة متأخرين لمدة 24 ساعة عن إخوانهم المقيمين في جزيرة دايوميد الكبرى الروسية Russian Big Diomedede رغم أن المسافة بينهما لا تتجاوز بضعة أميال لأن فارق التوقيت بينهما يبلغ 24 ساعة ، فيوم الجمعة عند أحدهما هو نفسه يوم الخميس عند الآخرين .

إن الوعي بطبيعة هذا النظام سيفسر أسباب كون يوم ابتداء الشهر في بعض الشهور قد يبدأ يوم الأربعاء مثلا في قسم من العالم بسبب ميلاد الشهر الجديد قبل الفجر عندهم ، بينما يبدأ الخميس في الأقطار الواقعة إلى الشرق منه لكون نفس لحظة ميلاد الهلال الجديد تقع بعد الفجر لديهم ، رغم وحدة المبدأ أو النظام الحسابي المستعمل ووحدة الإبتداء للشهر في لحظة واحدة لسكان الأرض جميعا .

9. الخلاصة : تدل نصوص الكتاب والسنة على أن لحظة الميلاد الفعلي للهلال منصبطة بحساب دقيق ، وأن رؤية الهلال رخصة مؤقنة ارتبطت بعلّة خاصة ألا وهي أمية الأمة وقتذاك ، وتزول هذه الرخصة بزوال الضرورة الملحّة للأخذ بها ، وأن المقصود هو التيقن من وجود الهلال الجديد وليست رؤيته ، كما هو الشأن في التيقن من دخول وقت الصلاة وليس مشاهدة الشمس والظلال سواء أكانت السماء صافية أم غير صافية .

إن كيفية تحديد بداية الشهر بناء على الرؤية أو الحساب أو غيرها ليست قصدا شرعيا لذاها ، وإنما هي من الوسائل التي تحقق مقصود الشارع لمعرفة ابتداء الشهور ، وقواعد الشريعة مرنة في استعمال الوسائل الجائزة التي تحقق المقصود على الوجه الأكمل ، والذي إن تعذر الكمال فعلى الوجه الأرجح والأنسب .

لقد وصلت علوم الفلك اليوم لمرحلة متقدمة لتحديد بدايات الشهور الفعلية بصورة يقينية . ويبدأ الشهر الجديد عند لحظة واحدة لأهل الأرض جميعا ، رغم أن هذه اللحظة تقع في مسمى يومين متتابعين نظرا لكروية الأرض ولطبيعة النظام المتعارف عليه لتحديد الوقت ، إلا أن بداية النسك كالصيام أو الفطر ستكون مشتركة في اسم اليوم في نحو 80% من البدايات . ويمكننا بسهولة إعداد تقويم لمئات السنين باستعمال توقيت جرينتش أو توقيت مكة كأساس جغرافي ، ثم تراعى فروق التوقيت لكل مكان . ولحظة بداية الشهر تكون بداهة ليلا على أقوام ونهارا على آخرين ، ويبدأ النسك بدخول وقت أدائه كصوم أو إفطار أو غير ذلك . وبذا يستقيم الفقه مع سنن الله الكونية ، وتخرج الأمة من تفرقتها ، وتفخر الأجيال الناشئة بانتماؤها لدينها... ولسنا في حاجة إذن إلى إنشاء قمر صناعي [إسلامي] لمراقبة الأهلة ، ولا إلى تطوير تلسكوب [متطور] لرصد الهلال وهو في طور مبكر ، وإن كنا في حاجة لتطوير هذه الإختراعات لمنافع أخرى شتى .

ومما يجدر بنا ذكره أن المؤسسة الفقهية في أمريكا والمتمثلة في المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية ، قد بدأت — فيما يبدو — في التمهيد للتوجه لاعتماد الحساب الفلكي الجرد ، وليس على أساس تحديد إمكانية المشاهدة وذلك فيما نشره رئيس المجلس الأخ الكريم الدكتور مزمل صديقي والأخ الكريم الدكتور ذو الفقار علي شاه ، وقد أكد هذا الأمر تصريحاً قاطعاً لا إجماعاً الأخ الكريم الدكتور نزهة حماد في رسالة له بعث بها إلى أعضاء المجلس الفقهي .

لعلنا مما سبق ندرک أن قبول بداية الشهر الفعلية أي لحظة المحاق — والمعروفة حسابيا في عصرنا هذا بلا أي هامش من الخطأ — بداية للشهر لأهل الأرض جميعا ، بل هي بدايته كذلك لمن هو على سطح القمر نفسه ، هي هي وحدها المنهاج الذي تؤكد نصوص الكتاب والسنة ، وهي سبيل وحدة المسلمين ، ومنهاج الأجيال القادمة — إن شاء الله — لا محالة ، لو تباطئ جيلنا اليوم أو تردد في قبوله . هذا وبالله تعالى التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .